أريج الشهداء

في رثاء مولاتنا فاطمة
[عليها السلام]

محمد باقر الموسوي



في رثاء مولاتنا فاطمة
[عليها السلام]

نَبَتَ المسْمَارُ.. يَرْوِي الحَقِيقَةَ

سَـــاعَات وَدقَائِق ثَقِيلَة بَقِيَت أَحْدَاثُهَا فِي الذَّاكِرَة لَا تَغِيب أَبَدًا تَرْتَسِـم صُـورَة حَمرَاء فِي مَخِيَلَتِي أَتَذَكَّرُهَا بِكُل تَفَاصِـيلِهَا الْحَزِينَة الْمُتْعَبَة، بِهَا صَـــوْت أَنِينٍ وَدِمَاءٌ تَجْرِي وَكُسْـــرَةُ ظَهْرٍ وَإِنْحِنَاءُ ضِـــلْعٍ، بُكَاءٌ وَتَنهِيدَةٌ مَلَأَت الْفَضَـــاء، تَسَـــارَعَتْ نَبَضَاتُ قَلْبٍ مُحَمَّلَةٌ بِالأَلَمِ شَمْسٌ أُذِنَ لَهَا بِالْمَغِيب، فَقَدْ خَيَّمَ بِهَا حُزْن شَدِيد، رَانَّ عَلَى الْقُلُوب، بَكَى مِنْ أَجْلِهِ الْمُوَالُونَ، اسْتَغَاثَ بِهِ الْمُحِبُّونَ بِـلَوْعَةِ الْمُصَابِ الْجَلَلِ، قُل لا أسألكم عليه أجراً، إلّا المودّةَ في القُربى.

أصدراً ومسماراً، وجنينُ السّماء يُعصر؟

أم خِباءً ونساءً، وزينبُ الزّهراءِ تُقهر؟

السّـــــماءُ تتلو (الواقِعة) وعُيونُ النّجومِ تتلألأُ باكيةً فازعة: أدُفِنَتْ (آلاءُ الرّحمنِ)؟، أأُطْلِقَتْ (آياتُ الشّيطان)؟.

- وَالَّـذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَـدِهِ لَتَخْرُجَنَّ أَوْ لَأَحْرِقَنَّهَـا عَلَى مَنْ فِيهَا..
- إِنَّ فِيهَا فَاطِمَةَ
- وَإِنْ !؟

حُرّقتّ الدّار، عُصِـرت فأُسـقطَ الجنين، أُنبتَ المسـمارُ ما هيَ إلّا بُرهة من الزمن حتّى رُفِعَ السّـوط، ووُكِزَت بالسّـيف وفي أثناء تلك المشاهد: صوتُ الأنينِ يحدي بالعين المحمرّة.

قِصَّـــةُ ثَلاثِ حُروفٍ هَزَّتْ عَرشَ الرَّحْمَانِ هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى تَحْدِيدِ مَصِـيرِكَ أَغْضَـبَتْ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَالسَّـمَاءِ وَأَبْكَتِ الْمَلَائِكَةَ حُزْنًا عَلَيْهَا مِنْ شَـهَقَةٍ مَكْتُومَةٍ خَلْفَ الْبَابِ وَدَارٍ

مَحْرُوقَةٍ بِيَدِ الْكُفْرِ فَأَسْـقَطَتْ رَضِـيعًا يَتْلُوهُ طِفْلًا بِيَدِ حَرْمَلَةٍ مَخْزُوزَ الرَّأْسِ مَنْحُورًا.

زَفَرَاتُ الْمَوْتِ تَتَنَاثَرُ كَجَمَادٍ مُحَمَّىٰ مُثَبَّتٍ فِي وَبَرِ الْحَائِطِ: عَرَفْتُ تَآمُرَ قُرَيْشٍ، وَانْحِرَافَ الطُّلَقَاءِ، وَخِذْلَانَ الْأَنْصَارِ فِيمَا يَخُصُّ الْأَحْدَاثَ بُعَيْدَ ارْتِحَالِ النَّبِيِّ صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُ حَالَ بَنِي هَاشِـــمٍ لِمَاذَا لَمْ يَضْـــجُّوا أَكَانَ سُكُوتُهُمْ خِيَانَةً؟ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَمَشَى مَعَهُ جَمَاعَةٌ حَتَّى أَتَوْا بَابَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ.

فَدَقُّوا الْبَابَ فَلَمَّا سَمِعَتْ أَصْوَاتَهُمْ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا بَاكِيَةً: يَا رَسُــولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِينَا بَعْدَكَ مِنْ ابْنِ الْخَطَّابِ وَابْنِ أَبِي قُحَافَةَ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ صَـــوْتَهَا وَبُكَاءَهَا انْصَـــرَفُوا بَاكِينَ، فَكَادَتْ قُلُوبُهُمْ تَتَصَدَّعُ وَأَكْبَادُهُمْ تَتَفَطَّرُ.

وَبَقِيَ عُمَرُ وَمَعَهُ قَوْمٌ فَأَخْرَجُوا عَلِيًّا وَمَضَـــوْا بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا بَايِعْ، فَقَالَ إِنْ أَنَا لَمْ أَفْعَلْ فَمَاذَا قَالُوا إِذًا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ نَضْرِبُ عُنُقَكَ.

قَالَ إِذًا تَقْتُلُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَأَخَا رَسُـــولِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَّا عَبْدَ اللَّهِ فَنَعَمْ، وَأَمَّا أَخَا رَسُولِهِ فَلَا، وَأَبُو بَكْرٍ سَاكِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ.

-اختنَقْتَ بعبراتِها قبل أن تختنقَ الجُدرانُ بالدّخان، فماذا تذكّرت؟

- دُفِعَ الباب، فانكَسَرَ غصنٌ من الجِنانِ، وتساقَطَت ثمرةُ الطّهرِ المحسنيّة لتُغْرِقَ الدّارَ عطراً من دِماء.

صَـــلاةُ المُتْعَبِ المُبْتَلى بالهَمّ والحُزن قَدِ اســـتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ مُحَمَّرَةَ الْعَيْنِ، مَسْـوَدَّةَ الْمَتْنِ، مَكْسُـورَةَ الضِّـلْعِ مع كلّ جرّةِ نفَسٍ تُسـمعُ آهة، فتزفرُ جهنّمّ وَلَيْسَ في مَنْزِلِ فَاطِمَةَ سِـوَى صَبيْنِ يَنْظُرَانِ عَوْدَةَ جَدِّهِمَا لَيْسَ في مَنْزِلِ فَاطِمَةَ سِوَى بِنْتٍ صَغِيرَةٍ غَارِقَةٍ بِدُمُوعِهَا في حُزْنٍ سَرْمَدِيٍّ. أَيْنَ أَنْتَ يا جَدَّاه؟

-أَنَا فَرْخُكِ الْحُسَـــيْن كَلِّمِينِي قَبْلَ أَنْ يَتَصَـــدَّعَ قَلْبِي فَأَمُوتَ.

هذا القَلْبُ نفسُـهُ سـيّدتي يا فاطمة تَصَـدَّعَ وتقَطَّعَ بسَـهْمٍ مَســـمومٍ في كَربلاء، وتمزَّقَ في حرِّ الهَجير، رأتهُ مُقطّعٌ مُرمّلٌ مُلقى على الصّعيدِ يبكيهِ الهواء بزفيرٍ ساخن ويئنُّ الرّملُ على أشـلائه الموزّعةِ هُنا وهُناك (،..صَـرَخَتْ وَوَلْوَلَتْ وَصَـاحَتْ

وَاثْمَرَة فُؤَادُهَا) جمعت الأوصال المتناثرة أنزلتُ جسماً مُقطّعاً وسّدتُ رضيعاً كُسِر السهمُ في رقبته صددتُ سوطاً كان يتلوى على طفل وصَوت التَّكبيرةِ والإقامة فِي أُذُنهِ تَفجرت: قبسٌ من نار يحتمي بمسمار يلتهم الباب، ويكسر ضلعَ ويحملُ خلفهُ كلمة (وإن) خطفت روح، وأيقظت موتىٰ رُكِلَ البابُ ليطْعَنَ ما في أحشائها هوَت على التُرابِ والحريقُ يأكُلُ ملامحَ وجهها التهمت خمار و اذبلت زهرّ.

أَتَرَى مَا فَعَلُوهُ بِنَا أَصْحَابُكَ؟ لَيْسَ لَدَيْنَا سِلَاحٌ إِلَّا الصَّبْرُ، وَالصَّبْرُ كَالْحَنْظَلِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْمَظْلُومُونَ. تَزَلْزَلَتِ الْمَدِينَةُ عَلَى صَدَى صَرْخَاتِ سَيِّدَةِ الْقُدَاسَةِ وَالطَّهَارَةِ إِذْ نَادَتْ: وَا أَبَتَاه، وَا مُحَمَّدَاه.

وَاجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ لِيَرَوْا كَيْفَ لُطِمَتْ بِنْتُ النَّبِيِّ عَلَى خَدِّهَا، وَكَيْفَ جُلِدَتْ بِالسُّوطِ عَلَى مَعْصِمِهَا، وَكَيْفَ عُصِرَتْ بَيْنَ حَائِطٍ وَبَابِ دَارِهَا. هُنَا انْهَارَتْ،

انْكَسَرَتْ، اضْطَرَبَتْ، فَأَبْنَتْ مُحَمَّدٍ أُنْبَتُ فِي صَدْرِهَا! دَخَلَ حُسَـيْنٌ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ بِانْكِسَـارٍ فِي الْبَيْتِ، أَخَذَ بِيَدِهِ الَّتِي تَرْتَجِفُ قِطْعَةً مُمَزَّقَةً دَامِيَةً مِنْ عَبَاءَتِهَا، وَجَدَهَا مُعَلَّقَةً بِمِسْـمَارِ الْبَـابِ. انْفَجَرَ يَبْكِي، وَأَنَا سَمِعْتُهَـا أَنـتَ، وَبَكَـتْ، وَجَرَتْ دُمُوعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ.

ارتفعت ألســنةُ النّيرانِ تنهشُ الدّار، الْتَوى السّــوطُ ليخنقَ عضُدَها الشّريف، رُكِلَ البابُ ليطْعَنَ ما في أحشائها، هوَت على التُرابِ والحريقُ يأكُلُ ملامحَ وجهها، هزّ المكانُ رنينَ صفعةٍ، بها تناثرتِ الأقراطُ كما دموعُها قد تطايرت.

بَيْنَ سَطْوَةِ الأَحْلَامِ وَعُمْقِ الجِرَاحِ كَانَ بَوْحُ المِسْمَارِ لِصَرْخَةِ آهٍ مِن بَعِيدٍ كَأَنَّهَا قَادِمَةٌ مِن مَفْجُوعَةٍ مَعْصُورَةٍ خَلْفَ الْبَابِ.

– المِسْـــمَارُ لَا يَعْلَمُ كَمْ هُوَ مُؤلِمٌ أَنْ يُطْعَنَ الْخَشَـــبُ فِي ظَهْرِهِ!، وَالْخَشَـبُ لَا يَفْقَهُ أَيْضًـا مَدَى تَعَذُّبِ المِسْـمَارِ عِندَمَا يَرْتَفِعُ صَوْتُ تَكْسِيرِ الأَضْلَاعِ وَالسَّمَاءِ.

–وَأَيُّ صَوْتٍ ذَاكَ؟

– صَـوْتُهَا وَصَـوْتُ السَّـمَاءِ، كِلَاهُمَا بُحَّا مِن فَرْطِ الآهَاتِ عَلَى مَا جَرَى خَلْفَ الْبَابِ.

–وَأَيُّ نَزْفٍ هُوَ أَكْبَرُ؟

– حِينَمَا دَخَلُوا وَلَمْ يَكُ اسْتِئْذَانٌ.

–لَا تَبْزُغِي يَا شَمْسُ كَيْ لَا تُرَى الزَّهْرَاءُ حَسْـــرَى، مَا عَلَيْهَا خِمَارٌ؟

– فَقَالَ إِي، وَعِزَّةِ الْجَبَّارِ!
وَمَا عَلَى الزَّهْرَاءِ مِن خِمَارِ!

–اقَتَلَتِ الْعَصْرَةُ قُدْرَتَهَا عَلَى الْمَشْيِ؟

– فَمُذْ رَأَوْهَا عَصَـرُوهَا عَصْـرًا، هَذِهِ الْعَصْـرَةُ خَلَّفَتْ أَنِينًا وَرَاءَ الْبَابِ، تَبِعَتْهُ صَـفْعَةٌ وَسَـوْطٌ وَشَـتْمٌ، وَالْقُرْطُ يَسْـبَحُ فَوْقَ أَوْدِيَةِ الدِّمَاءِ.

–أعالمٌ (بطرقِ السّماءِ والأرض)، يمشي باكياً؟

– وَأَمَّا أَحْلَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلامُ)، فَقَدْ عُصِرَتْ مَا بَيْنَ الْبَابِ وَالْحَائِطِ.

–وَزَيْنَبُ؟

– زَيْنَبُهَا الصَّـغِيرَةُ مَاتَتْ أَلْفَ مَرَّةٍ مُنْذُ أَنْ سَمِعَتْ صَـوْتَ تَكْسِيرِ الأَضْلَاعِ الْفَاطِمِيَّةِ مِن وَرَاءِ الْبَابِ.

–مَاذَا تَقْتَاتُ أَيُّهَا الْمِسْمَارُ أَلَّا يَكْفِي لِتَمُوتَ حُزْنًا، أَنِينًا؟

دَعَوْتُ يَارَبِّ اجْعَلْهَا ثَابِتَةً كَالجَبَلِ، فَهِيَ مُبَارَكَةٌ كَالنَّخْلِ طَاهِرَةٌ كَقَطَرَاتِ النَّدَىٰ، وَوَقَفَ الزَّمَانُ أَمَامَهَا مَذْهُولًا، غَيْمَةً بَيْضَـاءَ تَخْتَزِنُ الْوُعُودَ تَمَنَّيْتُ لَوْ أَنِّي لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ يَضَـعِ النَّجَّار لِي هَذَا الْمَوْقِعَ، أَشْتَدّ الْوَجَعُ فِيهَا وَلَمْ أُسَامِحْ نَفْسِي عَلَى مَا جَرَىٰ، وَلَمْ يَكْتَفِ الْمَشْهَدُ بِهَذَا فَقَط.

أَخَذَ عُمَرُ السُّـوطَ مِنْ يَدِ قُنْفُذٍ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ فَضَـرَبَ بِهِ عَضُدِي.

الْتَوى السّـوطُ ليخنقَ عضُـدَها الشّـريف، رُكِلَ البابُ ليطْعَنَ ما في أحشـــائها، هوَت على التُرابِ والحريقُ يأكُلُ ملامحَ

وجهها، هزّ المكانُ رنينَ صـــفعةٍ، بها تناثرتِ الأقراطُ كما دموعُها قد تطايرت.

فَالتَوَى السُّــوطُ عَلَى عَضُــدِي حَتَّى صَــارَ كَالْدُّمَلَجِ، وَرَكَلَ الْبَابَ بِرِجْلِهِ فَرَدَّهُ عَلَيَّ وَأَنَا حَامِلٌ، فَسَــقَطْتُ لَوَجْهِي وَالنَّارُ تَسْعَرُ وَتَسْفَعُ وَجْهِي، فَضَرَبَنِي بِيَدِهِ حَتَّى انْتَثَرَ قُرْطِي مِنْ أُذُنِي وَجَاءَنِي الْمَخَاضُ فَأَسْــقَطْتُ مُحْسِنًا قَتِيلًا بِغَيْرِ جُرْمٍ.

- وَرَى الْبَابِ اخْتَفَتْ فَاطِم وَلَاذَتْ؟!

-وُكِزها في بطنها وأُسقِط جنينها من رحمها و أُريقت دماؤها وانتُهِكت حرمتها وفي أثناء تلك المشــاهد: صــوتُ الأنينِ يحدي بالعين المحمرّة، عُصِرَتْ، صُفِعَتْ، أُسْقِطَتْ، وحَولها دماء.

اختَنَقَتْ بالدُّخانِ مرَّةً وبالغُصَّـــةٍ مرَّةً أُخْرى، لَمْ تَقْوى على الكَلام، فتكَلَّمَ الضّــلعُ بَدَلاً عَنها، صَــرَخَ كَسْــراً، فانْفَجَرَ بالبُكاءِ دَماً، وسَقَطَت.

آهٍ بعدها آه ألم يتبعُ ألم حسرة تشهقها فاطم فاطِمَة تستعد للرحيل وعليٌ: وكُل شــيءٍ يتســاءلأهذا علي؟ أيَرْتَجِفُ قالعُ البـاب؟ وأسمـاء تُراقِـبُ الفجيعـة، أميرُهـا يُمرّر يـديـهِ ليُكَفّنَ البدنَ النّحيل.

-رتلَتْ (سُورَةُ التَّكْوِيرِ) يَوْمًا؟

-تَرْتِيلٌ يُغْنِيَهُمْ مِنْ جُوعٍ، وَتِلْكَ (الشَّـــمْسُ) مَطَأَطَأَةٌ عِندَ الْبَابِ، تَبْكِي (كُوثِرَهَا).

- إِلَى أَيْنَ أَيَّتُهَا (الْمُؤَوَّدَةُ) الْمُنْكَسِرَةُ؟

-إِلَى الذِّكْرَى الْبَاقِيَةِ: صُـــورَةٌ فِي الْعَيْنِ الْبَاكِيَةِ وَهِيَ تَمْشِـــي بِخُطُواتِ الذِّكْرَيَاتِ الْمَجْرُوحَةِ، سِـــياطُ الْأَسَـــى تَتْرَى عَلَى قَلْبِهَا أَشْـتَمُّ رَائِحَةَ حَطَبٍ وَدِمَاءٍ وَضِـلْعٍ مَكْسُـورٍ، وَأَسْمَعُ فِي زَوَايَا (النُّفُوسِ) أَصْوَاتَ الْعَصْرِ وَالْآهَاتِ وَالزَّفَرَاتِ.

– زَفَرْتُ زَفْرَةً، فَاعْتَلَتْ آهَةً، رَجَفَتْ بِهَا الْكَوَاكِبُ: قَتَلْتُ الصَّبْرَ!؟

–وَأَحْلَامُ الشَّوْقِ تَبْنِي فِي خَيَالَاتِي بُيُوتًا مِنْ دُمُوعٍ شَاعِلَةً فِي خَدِّي الشُّـــموعِ، تَارِكَةً لَمْعَةً يَلْفَحُهَا هَجِيرُ الْحَنِينِ، تَتْبَعُهَا آهَـةٌ وَأَنِين أَتَنَفَّسُ رَائِحَتَكِ! تَتَجَدَّدُ الْحَيَاةُ فِي خَلَايَا دَمِي الْقَانِي.

– وَتَبْقَى آهَ الْوَدَاعِ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا شُـــجُونًا كَثِيرَةً طَعْنًا بِالْمِسْمَارِ قُتِلَتْ، غُسِّلَتْ، شُيِّعَتْ، سِرًّا دُفِنَتْ، وَلَا زَالَ الْقَبْرُ يَئِنُّ مِنْ كَسْرِ الْأَضْلَاعِ.

أغمَضَ الموتُ جفنيها، رُفِعَتِ الجنازة فَمَالَت بضـــلعها المكســور، المشــهدُ يُرى من بعيدٍ، الحســنانِ يجرّانِ وراءهما الدّموع، وقالعُ البابِ عليٍ يتعثّرُ في كُل خُطوةٍ، وتُســنّدُهُ

أرواحُ سـلمانَ وأبا ذرٍ وعمارَ ومقدادَ وبقيّةَ المفجوعين، يبكي كُلّهم لم يعرفوه: أمِثْلُ فاطمةٍ تُعوّض.

ذابَ لحمُها حتّى التَصَقَ عظْمُها بجِلْدِها، ومِنْ شدّة ما رُوِّعَت، بَقِيَتْ آثارُ التعذيب على بدَنِها الطّاهر إلى آخرِ يومٍ من حياتها، شيءٌ في عينِها وفي ضِلعها وحتّى يَديها، والتي منذُ ذلكَ اليوم صارت لا تستطيعُ إلّا رَفْعَ يدٍ واحدة.

ليسَ خيالاً، هُوَ واقعٌ يُبكي حتّى الموت.

أَتَسْمَعُ سَيِّدِي صَدَى آهَاتِهَا؟ أَتَسْمَعُ دَوِيَّ شَهْقَاتِهَا كُلَّمَا تَنَفَّسَتْ؟ بَابٌ وَمِسْمَارٌ، جَنِينٌ وَجِدَارٌ، سِيَاطٌ وَنَارٌ، وَمَنْ يَخْشَى الْهَوَاءَ مِنْ اسْمِهِ يَبْكِي مُبَلَّلًا لِحْيَتَهُ: وَأَلَمُ الْفَقْدِ قَدْ تَرَكَ فِيهِ مَا تَرَكَ مِنْ حَنِينٍ وَأَنِينٍ يُهِمُّ بِتَشْيِيعِهَا فِي وَحْشَةِ اللَّيْلِ الْأَشْبَهِ بِاللَّوْنِ مَتْنَهَا، دُمُوعٌ تَتَرَاكَضُ عَلَى خَدَّيْهِ، يَحْمِلُ نَعْشَهَا بِكَفٍّ يَرْتَجِفُ نُحُولًا، نَفْسُ الْكَفِّ الَّتِي قَلَعَ بِهَا بَابَ خَيْبَرَ.

وَفَجْأَةً يَتَنَحَّى بِعَيْنٍ احْمَرَّتْ مِنْ فَرْطِ الْبُكَاء، وَجَدَ مَا كَانَتْ تُخْفِيهِ زَهْرَتُهُ عَنْهُ: صَفْعَةٌ وَكَسْرُ أَضْلَاعٍ لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ سِوَى أَسْمَاءَ تَرَاقِبُ فَتَاةً تَشِعُّ نُورًا كُلَّمَا اشْتَدَّتْ ظُلْمَةُ الْأَرْضِ ذَابَتْ شَمْعَةُ السِّنِينَ، سَالَتْ دُمُوعُهَا بِصَمْتٍ. شَيْئًا فَشَيْئًا كَانَتْ تَذْوِي وَيَخْبُو نُورُهَا.

سَكَنَتِ الْأَعْيُنُ وَلَنْ تَبْرَحَ مِنْهَا، يَقِفُ وَرَجْلاهُ تَرْتَعِشَانِ، يَمْسَحُ عَلَى جَبِينِهَا، يَتَذَكَّرُ كَيْفَ كَانَتْ تَتَلَوَّعُ عِندَ التَّنَفُّسِ، يَبْكِي وَيُتَمْتِمُ بِصُعُوبَةٍ: رحَلَت بجفنٍ أحمر، أُبْعِدَت بعلاماتِ وكزِ سيفٍ ولسعاتِ سياطٍ، قطعوا غُصنها كسروا ضلعها، كيفَ تُغسّلُ؟ كيفَ تُودَّع؟ من أنا بعدها؟ جسدٌ بلا روح:

فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى

هَضْمِهَا فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُوَدِّعٍ لَا قَالٍ وَلَا سَئِمٍ فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ .

المِسْـمَارُ كَانَ يَتَأَلَّمُ مِنْ قُوَّة الدَّفْعَة، وَسَـيَبْقَى يَرْوِي حِكَايَتَهُ إِلَى ظُهُور مَنْ يُنَادِي: يَا لثَارَاتِ فَاطِمَةَ.

فَاطمَة تَسْكُنُ في وَسَطهَا.. وَإن

فَاطِمَةُ مَا أَنْ تُكْتَبَ حَتَّى تَجْزَعَ الحُرُوفُ وَتَتَجَرَّدَ مِن ثِيَابِ عِفَّتِهَا. تَسْكُنُ في وَسَطِهَا "وَإِن" حَتَّى قَضَتْ مَكْسُورَةَ الضِّلْعِ وَالخَاطِرِ، مُحَمَّرَةَ الْخَدِّ وَالنَّاظِرِ..

***

(فَاء) اسمُها يَحْمِلُ جُرْحًا غَائِرًا في انحِنَائِهِ، يَعْبَثُ بِأَوْتَارِ القُلُوبِ، وَيُؤْذِي الصَّامِتِينَ. فَاطِمَةُ هُوَ الاسمُ الأَوَّلُ مِنْ أَسْمَاءِ السَّمَاءِ، هُوَ بَوَّابَةٌ أُولَى لِدَارِ الشَّجَنْ.

***

(أَلِف) اسمُها يَرْفَعُ أَثْقَلَ الجَزَعِ مُحَمَّلًا بِهَلَعِ قُلُوبِ حُسْـنَيْهَا، وَدِمَاءِ مُحْسِـنِهَا. هُوَ كَالْحَدِيدِ صَـامِدٌ خَلْفَ الْبَابِ، رَغْمَ القَسْوَةِ مَا زَالَ مُسْتَيْقِظًا بِلِيلٍ أَظْلَمَ أَشْبَهَ بِاللونِ مَتْنِهَا الَّذِي اسْوَدَّ أَلَمًا.

***

(الطَّاء) قَد طَأْطَأَتْ رَأْسَـهَا وَأَحَنَّتْهُ، مِن شِـدَّةِ الحَيَاءِ قَبْلَ الإِلْمِ، يُبْعِثُ لَنَا آيَاتِ الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ وَالْعَنَاءِ. تَقِفُ مُمْسِكَةً ضِـلْعَهَا بِيَدٍ، وَبِيَدٍ أُخْرَى خَدَّهَا الْمَسْـطُورُ، تَتَنَاسَـى وَجَعَهَا وَدِمَاءِ (مُحْسِنِهَا) الَّتِي صَبَغَتِ الْبَابَ لِتُغْرِقَ مُحِبِّيَهَا بِالرَّحْمَةِ.

***

(مِيمُهَا) الَّذِي أَخَذَ مِنْ اسـمِ أَبِيهَا، هُوَ الحَرْفُ الَّذِي لا تَضِـيعُ عِندَهُ الْمَوَاجِعُ، وَبِهِ الظُّلْمُ وَالْعِلَّةُ وزلزلةُ آهاتٍ خلفَ الباب، وأضلاعٌ تُكسر، تُهشّم.

وَفِي نِهَايَةِ اسمِهَا الْمُقَدَّسِ التَفَتَ حَوْلَهُ (الهَاء) وَضَمَّتْهُ بِمَا فِيهِ مِنْ كِبْرِيَاءٍ، لِكَيْ لا يَحْزُوا مِنْ جَبَرُوتِهَا وَلَا إِسْـــقَـاطِ عَلُوِّ كَلِمَتِهَا. قَد تَجَرَّدَ مِن كُلِّ أَشْـــفَافِ ذَاكَ الَّذِي، أَلْوَىٰ عَلَى يَدِهَا السَّـوْطُ تَارَةً تَمْسِـكَةً وَتَارَةً يَمْتَدُّ بِالصَّـيْحَةِ، وُلُفَّ حَوْلَ دَارِهَا قَبَسٌ مِنَ النِّيرَانِ.

***

وَوَضَـعَتِ النُّقَاطَ عَلَى هَائِهَا، لِرَسْـمِ اسمِهَا وَخَتَامَةٍ بِالِاسْـتِنَادِ عَلَى فِضَّـــةٍ، وَأَصْـــبَحَتْ وَاَكْتَمَلَتْ حُرُوفُ نِيَاحِهَا وَلَا قُوَّةَ لِتَحْتَوِيَهَا.

فَمَا سُقُوطُ الحَمْلِ؟ مَا صَدْرُهَا؟

مَا لَطْمُهَا؟ مَا عَصْرُهَا بِالْجِدَارِ؟

مَا وَكْزُهَا بِالسَّيْفِ فِي ضِلْعِهَا؟

وَمَا انْتِثَارُ قُرْطِهَا؟

مِنْ وَحْيِ، ذَلك الْمِسْمَار الدَّامِي / ١٤٤٦هـ

محمَّد بَاقِر الْموسَوِي